العرابى- ناصف- القاضى- جماعة التمسك بالقانونية

قلنا فى فصل سابق: إن محمود حسنى العرابى قد نادى عقب خروجة من السجن بالاتجاه الإصلاحى القانونى الذى يطالب بالانسحاب من الكومنترن عدم إعلان شيوعية الحزب والاكتفاء بطرح برامج وشعارات تتماشى مع القانون والدستور بحيث يحافظ الحزب على علنيته ذلك أن العلنية هى السبيل الوحيد لتحقيق أية دعوة ناجحة.

وقد قاوم الحزب هذا الاتجاه ورفضه بشدة وأدى الأمر بحسنى العرابى إلى الانسحاب وحيدا.

ذلك أن كافة المصادر توضح أن أحدا من كوادر الحزب لم يخرج مع العرابى باستثناء الهامى أمين.

وخير دليل على ذلك أن حسنى العرابى سعيا وراء تنفيذ فكرته لم يجد من يعاونه سوى اثنين من المثقفين اليساريين هما عصام الدين حفنى ناصف والدكتور عبد الفتاح القاضى وكانا بعيدين حتى ذلك الحين عن صفوف الحزب.

والحقيقة أن كلاما كثيرا قد قيل عن حسنى العرابى.. أول سكرتير عام لأول حزب شيوعى مصرى. وسكرتير عام اتحاد النقابات وأول ممثل للحزب لدى الكومنترن، والرجل الذى تم على يديه انضمام الحزب للكومنترن.

فلما اختلف مع الحزب وابتعد عن صفوفه حاول أن ينفذ فكرته عن العمل «العلنى» بأن يتحول إلى كاتب ينشر أفكاره عن طريق الكتابة فى الصحف وفتحت له بعض الصحف أبوابها وبدأت مقالاته تتوالى فى الظهور ابتداء من يناير ١٩٢٧ على صفحات الهلال- المقتطف- الرقيب- الحياة الجديدة.. الخ.

وربما كان افتتاح المجال بهذه الصورة للعرابى كى يكتب فى كل هذه المجلات دفعة واحدة نوعًا من المؤامرة المحبوكة التى استهدفت اصطياد العرابى بعيدا عن الحزب وتشجيعه على سياسته الانفصالية ومحاولة إيهامه بأن تحقيق فكرته أمر ممكن..

ثم بعد ذلك وبعد أن تحقق هدف المؤامرة أوصدت كل الصحف أبوابها فى وجه الرجل..

لكن الرجل لم يكن يريد بالفعل أن يتخلى تماما عن القضية التى آمن بها.

وربما كان يتصور أن انفصاله عن الحزب لا يعنى انفصاله عن النضال وهكذا حاول أن يخوض المعركة القانونية من أوسع أبوابها، باب إصدار الصحف..

واتفق مع عصام الدين ناصف ومع الدكتور عبد الفتاح القاضى إصدار مجلة «روح العصر»..

ويبدو أن تجمع العرابى- ناصف- القاضى لم يكن وليد المصادفة ولم يكن موقوتا بإصدار روح العصر. بل كان سابقا عليها.

فعصام الدين ناصف يقول فى محضر تحقيق أمام النيابة أجرى فى أبريل ١٩٣١ ما يلى:

س: هل تعرف محمود حسنى العرابى؟

ج: نعم أعرفه وهو صاحبى.

س: من أى وقت تصادقه؟

ج: من بضع سنوات»[١].

ومجلة روح العصر صدر عددها الأول فى فبراير ١٩٣٠ .

وثمة شىء آخر يلفت النظر، ففى نفس الوقت الذى انسحب فيه العرابى من الحزب وهو أواخر عام ١٩٢ أو أوائل ١٩٢٧ تصدر اسم عصام ناصف بيانا صادرا «اللجنة التحضيرية للحزب الاشتراكى المصرى».

فقد نشرت كوكب الشرق برقية واردة إليها من هذه اللجنة تقول «اللجنة التحضيرية للحزب الاشتراكى المصرى تحتج بشدة على منع النائب الشيوعى البريطانى سكالا تفالا من دخول مصر، وتعلن أن اضطهاد الحرية الفكرية لا يمكن أن يدل على شجاعة الحكام الذين يخافون من ذيوع الحقائق.

السكرتير- عصام الدين ناصف».

وتتهكم «كوكب الشرق» على هذا الحزب الذى «لم يسمع به أحد والذى نبت نبتا شيطانيا»[٢].

لكن المؤكد أن الرجعية المصرية قد كتمت أنفاس هذه المحاولة بالرغم من تمسكها بأهداب العلنية ومراعاتها لنصوص القانون، وهكذا تعذر على العرابى أن ينفذ مشروعه بتأسيس حزب علنى فلا بأس من أن يتواضع وأن يكتفى باستخدام الإمكانيات «القانونية» المتاحة. وهى الكتابة فى الصحف ولا بأس من التجرؤ فيما بعد وإصدار «جريدة».

وأعتقد أنه من الضرورى أن نستعرض بعضا من هذه الأفكار التى روجها العرابى ومجموعته واعتبروها بديلا كافيا عن العمل الحزبى السرى.

وأمامنا فى البداية مجموعة مقالات العرابى التى كتبها فور انسحابه من الحزب.. وهى فى مجموعها مقالات أدبية واجتماعية وتاريخية.. تمثل إلى حد كبير محاكاة متطورة وذكية لكتابات سلامة موسى التى تستهدف «التنوير» بشكل عام ولفت أنظار جمهور القراء إلى عديد من الحقائق الاجتماعية والاقتصادية بأسلوب يتمشى مع المنهج العلمى والجدلى.

ولنحاول أن نستعرض بسرعة بعض هذه الأفكار التى حاول العرابى أن يقدمها لقرائه. وثمة مقال بعنوان «الاكتشاف طليعة الاستعمار»[٣] يعرض فيه كتاب السير صموئيل بيكر عن رحلته إلى منابع النيل.. وهو ينتهز فرصة عرض الكتاب ليدين الاستعمار ويكشف عن جذوره ويعبئ المشاعر ضده فهو يقدم مؤلف الكتاب قائلا: «.. فالسير صموئيل ارستقراطى بحكم نشأته، مستعمر بحكم بيئته، مسيحى متعصب ناقم على الشرقيين والاسلام والمسلمين يراه القارئ فى كتاباته ينعى على الديمقراطية، ويهزأ بصوت الشعب ويضحك من المساواة ويبرر الاستعمار ويستحسنه.. ويحمل على المصريين والأتراك حملات شعراء بدون مبالاة لفتا لأنظار شعبه إلى استذلال وادى النيل».

لكن العرابى لم يكتف بالهجوم على الاستعمار والمستعمرين فهو يدافع عن حقوق العمال مطالبا لهم بأجور أعلى قائلا: «إن فى بلادنا عمالا يجب البحث فى شؤونهم

والتفكير فى سياستهم ولو من الوجهة العلمية البحتة إن لم يكن كذلك من الوجهة الاجتماعية، وإنه عن قريب سيظهر لهم أثر فى شؤون الدولة وستكون لهم دوائر تنطق عن لسانهم كما حدث فى الصين مثلا، وأن دلائل الأمور تدلنا على صحة ما ذهبنا إليه بالمشاكل التى نسمع عنها ونقرأها كل يوم بين العمال وأصحاب رؤوس المال فى مصر تنذر بقرب هذا اليوم».

لكن الرجل لا يريد لكلماته أن تفهم على أنها دعاية أو تحريض، وهو حريص كل الحرص على ذلك فهو يؤكد فى مقاله «والذى نريد أن نبحثه اليوم فى مقالنا ليس مذهبا سياسيا ولكنه نظرية اقتصادية حديثة دلت المدرسة الحديثة من الاقتصاديين على ضرورة الأخذ بها لصالح العمال والعمل أو قل لصالح الصناعة والدولة».

وبعد هذا الإيضاح- الذى يرى العرابى أنه ضرورى يمضى ليشرح نظرية اقتصادية تطالب بمنح العمال أجرا يوفر لهم «ضروريات الكفاية» وليس مجرد «ضروريات الحياة» ويتحدث طويلا عن نضال العمال الأوروبيين والمكاسب التى أحرزوها نتيجة لنضالهم المستمر ثم يعرج على مصر قائلا: «مازالت أجور العمال عندنا منحطة لدرجة تكاد تكون تحت مستوى (ضروريات الحياة) فأجر العامل غير المدرب عشرة قروش تقريبا بينما عدد الأنفس التى يعولها ستة أنفس كما جاء فى أحد تقارير جمعية الصنائع- وأجور البنات والأولاد الذين يعملون نحو ١٥ ساعة فى اليوم زهيدة جدا فلا تزيد عن قرشين ونصف قرش وساعات العمل على العموم عندنا أطول منها فى كل البلاد المتمدنة. والثقافة معدومة. والمسائل الصحية وغيرها لم يأت دور التفكير فيها بعد».

ومرة أخرى يشعر الرجل أنه بحاجة إلى «إيضاح» موقفه وإلى تبرير دفاعه عن العمال بل وإلى دفع شبهة تحمسه للدفاع عنهم فيقول:

«ونحن لا نطلب للعمال شيئا فهم أحق وأقدر على الطلب منا ولكننا إذا قصدنا من الكتابة شيئا إنما نقصد أن نلفت أصحاب الصناعات ورجال السياسة فى مصر إلى الضرر المحقق الذى يحيق بالصناعة المصرية وهى فى مهدها من إضعاف الإنتاج على توالى الأيام بإهمال تحسين حال العمال اكتفاء بالربح القريب المؤقت»[٤].

ويستخدم العرابى فى مقالاته كل ما لديه من ذكاء ليهاجم الحكومة القائمة فى ذلك الحين وليهاجم الاستبداد والاعتداء على حرية الرأى... وتحت عنوان برىء مثل «الجريمة

أسبابها وعلاجها» يشن هجومه العنيف قائلا: «البيئة التى تقتل حرية الرأى وتعتدى على الحرية الشخصية خدمة لبعض أفرادها، لا بد وأن تبلى بالجمعيات السرية. والمؤامرات تدبر لتحطيمها فى الظلام وتحت الأرض، والبيئة التى تعمل على إفقار أفرادها لا بد وأن يكثر فيها اللصوص وقطاع الطريق..».

بل إنه يوشك أن يقدم نوعا من «البرنامج» فيقول:

«فلو تدبرت البيئة فى العوامل الاقتصادية المحيطة بها لأمكنها أن تشل سير الإجرام، فمثلا لو لاحظت إحدى البيئات الزراعية بعض إصلاحات كجعل إيجار الفدان لا يزيد عن نسبة مخصوصة من قيمة الضريبة كان تكون مثلا أربعة أضعاف، وعملت على إصلاح الأراضى البور والمستنقعات وتوزيعها بعد الإصلاح على فقراء الفلاحين، وقربت بين الثروات بتخفيف الضريبة على المالك الصغير، وسن ضرائب على التركات الكبيرة، وعممت التعليم إلى غير ذلك. لكان من الصعب على الجريمة أن تجد مثل تلك البيئة محلا للفقس والتفريخ.

أما البيئة التى تغض النظر عن الاعتبارات الاقتصادية، وتكتفى بإصدار القوانين الاستثنائية من وقت لآخر، وتشيد كل يوم سجنا وتطلب اعتمادا جديد من هيائتها النيابية لأعمالها السرية فبشر حكامها وسوّاسها بتفشى الجريمة وازيدادها على مر الأيام. وهذه هى الحال فى كل البلاد المتأخرة»[٥].

فهل كان العرابى يقصد فعلا الحديث عن أسباب الجريمة أم أنه تستر تحت عنوان برىء ليقدم أفكارا وبرنامجا محددا.

واضح أن الاحتمال الثانى هو المرجح.

كذلك فقد شن العرابى فى مقالاته هجمات اجتماعية جريئة غاية الجرأة تناول فيها موضوعات مثل «الزواج الحاضر» الذى وصفه بأنه «بغاء مشروع» «أليس الزواج عندنا زفاف مجهولة إلى مجهول طمعاً فى ثروة أو إطفاء لشهوة؟ فإذا تزعزعت الثروة لسبب ما تزعزعت معها أركان الزوجية، وإذا أخمدت حرارة الشهوة فترت علائق الزوجية»[٦].

بل إنه يتحدى مشايخ الأزهر مطالبا بإصلاح جذرى لشئون الأزهر وتحويله إلى كلية للاهوت ويقول «لقد كان الدين فى العصور الأولى صناعة احتكرتها طائفة من الناس فأطفأوا بها شهوة، ونالوا من ورائها جاها وسلطانا، فشيدوا المعابد، وأقاموا القصور

وقصموا ظهور الشعوب بما كانوا يجمعونه من كدهم وعرق جبينهم.. وقد جرى فى الإسلام شىء كثير مما جرى فى المسيحية فى القرون الوسطى فجلد المفكرون الأحرار وأحرقت كتبهم، وسجن الأئمة والمجتهدون».

ثم يوجه الهجوم إلى «المشايخ» أنفسهم قائلا إنهم «قطعوا حياتهم الدراسية يرتزقون باسم الدين بما ينفق عليهم من «الجراية» ويعيشون بعد أن تخرجوا من الدين. والأزهريون جيش كبير لو وجه به إلى عمل منتج فى أعمال الدولة لخطت البلاد خطوة و سعة إلى الأمام»[٧].

ثم هو- فوق ذلك- يقدم دراسات فى تاريخ تطور المجتمعات ونشأتها متتبعا نفس الأسلوب الكلاسيكى الذى نهجه الماركسيون القدامى فى استعراض ما اسماه «تاريخ البشرية المادى» عارضا فكرة ماركس عن «المادية» التاريخية»[٨].

وثمة سؤال آخر يطرحه العرابى ليجيب عليه «كيف يكتب التاريخ اليوم؟» وهو ينتقد فى إجابته المنهج «البرجوازى» فى كتابة التاريخ شارحا وجهة نظر الاشتراكيين فى ضرورة أن ينظر المؤرخ إلى «الشعوب نفسها وإلى المؤثرات الطبيعية فيها والطارئة عليها، ويحلل عاداتها وأعمالها ومدنياتها»[٩].

بل إن مجلة «الرقيب» تطلب إليه أن يسجل ذكرياته فى السجن فتقدمه إلى قرائها قائلة: «الرجل الكبير النفس كالذهب، لا تذهب بقيمته الخطوب، ولا تقل من عزمه الكروب، فهو لا تبدله النعمى ولا البأساء، ولا تغيره الأيام السوداء، فالذهب فى التراب، هو الذهب فى أعناق الحسان وصدورهن.. ومن هؤلاء الأصدقاء الكرام الأستاذ حسنى العرابى الذى حوكم كزعيم للشيوعيين فى مصر ثم أفرج عنه منذ زمن قصير».

أما العرابى فقد قدم الحلقة الأولى من ذكرياته «فى الأسر وبعد الأسر» بعبارة لجول سيمون تقول: «فحرية الاعتقاد التى قتل فى سبيلها ذلك العدد العظيم من الشهداء ليست حرية التفكير الباطنى وإنما هى حرية إعلان الفكر».

أما الحلقة الثالثة والأخيرة من ذكرياته هذه فتتصدرها عبارة أخرى لجول سيمون «فيا للشقاء لقانون مكتوب لا يكون صدى لقانون الأخلاق، ويا لضيعة مجتمع يكون القانون فيه ممالئا للأحزاب لا للعدل ويقع السيف فيه على رؤوس الشهداء مكان المجرمين»[١٠].

ولقد تعمدت أن أورد بعضا من كتابات الرجل لعلها تكون فرصة لنا لنتعرف على أول سكرتير عام للحزب الشيوعى المصرى وعلى أسلوب تفكيره ومستواه الثقافى والفكرى.

وعلى أية حال فإن الفرصة لم تتح طويلا أمام الرجل كى يكتب فما لبثت الصحف أن أغلقت أبوابها فى وجهه وكان هو كما أسمى نفسه فى ذلك الحين «الأسير الطليق» فقد أفرج عنه لكنه خاضع لحكم «الرقاب» يفرض عليه عدم مغادرة منزلة بعد الغروب وعدم مغادرة المدينة التى يقيم فيها «المحلة الكبرى» إلا بإذن خاص من البوليس..

وتنتهى فترة الرقابة، ويصل الرجل لى القاهرة ليبدأ مرحلة جديدة هى مرحلة «روح العصر».

و«روح العصر» تمثل خطوة جديدة فى نضال جماعة «الإصلاحيين» فهى تعلن عن نفسها صراحة بأنها «جريدة اشتراكية سياسية» وكان من المستحيل منح ترخيص بإصدار المجلة لحسنيى العرابى أو عصام ناصف. فحصل د. عبد الفتاح القاضى على الترخيص باسمه وتولى رئاسة التحرير وصدر العدد الأول فى ١٤ فبراير ١٩٣٠.

وتتمثل الأهمية الأساسية فى مجلة «روح العصر» فى أنها تكشف لنا بوضوح عن المدى الذى وصل به هؤلاء الرجال الثلاثة بفكرتهم عن «العلنية»، وإلى أى حد أصبحت «العلنية» والتقيد بها سبيلا لترويج أفكار خاطئة وانتهازية من وجهة النظر الماركسية.

فالأفكار التى أمكن لها أن تتردد «علنا» فى ظل الظروف السياسية التى سادت مصر عام ١٩٣٠ كانت مجرد أفكار ليبرالية أو تكرار لمفاهيم الدولية الثانية.

صحيح أنها تضمنت مقالات بالغة القيمة تتناول الفكرة الاشتراكية بالشرح والتحليل وتجيب على كثير من التساؤلات التى تثور حولها.. مثل ذلك المقال القيم الذى نشره عصام الدين ناصف فى أول أعداد «روح العصر» بعنوان «ما هى الاشتراكية؟» ويجيب على السؤال قائلا:

«الاشتراكية هى نظام اقتصادى واجتماعى يراد به:

١- منع الإنسان من استعباد الآخرين أو استغلال مجهوداتكم، فلا يسمح لرجل أن يمتلك مصنعا يستخدم فيه مئات العمال يتحكم فى أرزاقهم، ولكن يسمح له بامتلاك منزل صغير لسكناه.

٢- منع الأفراد والشركات الرأسمالية من التحكم فى كمية المحاصيل الزراعية والصناعية وفى تقدير ثمنها.. وذلك لا يتأتى إلا بجعل وسائل الإنتاج ملكا للأمة تديرها الحكومة أو المجالس البلدية أو النقابات التعاونية.

٣- منع الاستعمار والحروب التى تنشأ من الرغبة فى الاستعمار..

٤- منع الحروب التى تنشأ من التنافس التجارى، فإن الحرب العظمى التى قتل فيها ملايين الشبان ممن لا ذنب لهم والتى صرفت فيها الدول ألوف الملايين من الجنيهات، هذه الحروب نشأت بسبب التنافس التجارى بين الدول..

٥- تقليل تكاليف الإنتاج، فإذا كانت الأراضى الزراعية التى فى مصر تستثمر كلها على الطريقة الاشتراكية فإن وابورات الحرث وماكينا الدراس وغيرها تحل محل المحراث البلدى والتورج. فتقل تكاليف حرث الفدان فى المرة الواحدة من ٧٩ قرشا إلى ١٥ أو ٢٠ قرشا فقط.

وينشأ من ذلك أنه يمكن للزراعة أن تستغنى عن عدد من عمالها فيشتغل بعضهم فى بناء منازل صحية للفلاحين وإنشاء طرقات جميلة فى القرى ومسارح للتمثيل ومدارس ومستشفيات ودور للكتب.

٦- تقليل عدد ساعات العمل.. وقد خفضت روسيا ساعات العمل إلى ٧ ساعات فى اليوم.. والمأمول أننا نستطيع فى ظل النظام الاشتراكى أن نخفض ساعات العمل إلى ٤ ساعات فى اليوم على الأكثر حتى يستطيع العامل أن يجد الوقت اللازم لتثقيف ذهنه بالقراءة والدراسة وتربيض جسمه بالألعاب المختلفة، والشعور بالهناء العائلى وهو يقيم مع عائلته ويلاعب أطفاله..»[١١].

وصحيح أيضا أن «روح العصر» قد تعرضت لكثير من القضايا السياسية المحلية متخذة مواقف صحيحة تقف إلى جانب الشعب ومصالحه وتدين الرجعية ومؤامراتها على هذه المصالح.. فتحت عنوان «دسائس الرجعيين ضد التعليم الإلزامى» يهاجم د. عبد الفتاح القاضى الحملة الرجعية التى ترفض التعليم الإلزامى وتقاومه بحجة أن «السواد الأعظم.. إذا قرأ وكتب، لن يرضى بأن يعمل عمله الحالى فى الأرض أو المصنع ويرد عبد الفتاح القاضى على هذه الحجة بعنف وصراحة قائلا: «نحن لا ننكر أن انتشار التعليم والثقافة بين السواد الأعظم لهذا الشعب وهى الطبقة العاملة سيثير فى نفوسهم عدم الرضى بحالتهم الراهنة من أجور منخفضة لا تكاد تسد الرمق، إلى مسكن هو بالقبر أشبه منه بالسكن، إلى ازدراء وسوء معاملة، نعم لن يرضى العامل المصرى إذا ما تثقف وتعلم بهذه الحال»[١٢].

وعندما توقفت المفاوضات بين الحكومتين المصرية والبريطانية تسأل «روح العصر» «قطعت المفاوضات. فماذا نحن فاعلون؟» وفى الإجابة على هذا السؤال تتحدث المجلة طويلا عن حقوق الشعوب ثم تؤكد أن السبيل للقضاء على الروح الاستعمارية هو انتصار الاشتراكية وانضواء الغالبية الساحقة للعمال فى العالم تحت لوائها.. ثم تقول «إن من يمعن النظر فى تطور المذاهب فى العالم فى السنين الأخيرة لا بد وأن يعترف معنا بأن المذهب الاشتراكى يكسب أنصارا ويزداد قوة اليوم بعد اليوم، وأن العالم كله صائر إلى الاشتراكية لا محالة، وهنا يتحقق ما تراه الإنسانية اليوم وتصبو إليه فتستعيد الأمم جميعا حريتها واستقلالها وتحل المعاهدات الاقتصادية محل القيود الاستعمارية فى ضمان تزويد كل شعب بما يلزمه من المواد الخام أوغيرها ليعيش عيشة هنية سعيدة فى سلام»(١٣).

كذلك فقد جعلت «روح العصر» من صفحاتها منبرا تجمع حوله عدد من قادة العمال والنقابيين والثوريين الذين لم يكتفوا بتحرير صفحاتها بل كانوا يقومون أيضا بتوزيعها..

ومن بين هولاء النقابيين الذين التفوا حول «روح العصر» كمنبر اشتراكى،* النقابى القديم سيد قنديل الذى كتب على صفحاتها مقالا بعنوان «كيف نكون اشتراكيين؟ ولماذا؟» جاء فيه «إن اتحادنا دليل قوتنا. ودليل عظمتنا. ودليل تقدمنا وباعث حضارتنا وفوق هذا فهو عنوان اشتراكيتنا، وحيث تكلمنا عن الاشتراكية فليكن منا أشخاص عاملون لها بكل قواهم باذلون فى سبيلها جميع جهودهم، لا يرهبهم غير صوت الحق ولا يقعد بهم ما يلاقونه من عسف وجور فالحق فى أيديهم والله كفيل به. والجور فى يد مضطهديهم والله غير راض عنه».

ثم يقدم سيد قنديل نوعا من «برنامج العمل» ويهيب بإخوانه العمال أن يلتزموا:

١- تشجيع صحافتنا الناطقة بلسان حالنا.

٢- ضم صوتنا لصوت إخواننا الاشتراكيين فى بلدان العالم وعلى الأخص العاطفين علينا منهم فى الشرق.

٣- مطالبة الحكومة بسرعة إصدار وطبع تشريع العمال- وضرورة سن قوانين تحمينا من عسف المولين وأصحاب الأعمال خصوصا وغالبهم من الأجانب.

٤- مطالبة الحكومة بسماعدتنا لدى المولين المصريين فى تشجيع العامل المصرى».

ثم يختتم سيد قنديل مقاله قائلا: «فإذا قمنا بما يجب علينا من ذلك نكون اشتراكيين «مع التحفظ» فما قصدنا من الاشتراكية إلا إصلاح حالنا نحن العمال جميعا. وإنى وإن قلت جميعا فهذا دليل اشتراكيتنا الخالصة من ما فى ظنون محاربينا الذين لا غاية لهم إلا استثمار أموالهم باستغلال مجهودنا وعرقنا.. ولئن كنت أخص أحد بكلمتى هذه- وهذا واجبى- فلأخص بها إخوانى العمال المصريين»[١٤].

لكن «روح العصر» قد فتحت صفحاتها أيضا أمام اتجاهات لا تمت للاشتراكية بصلة وإن ادعت الاشتراكية.. فثمة مثال بتوقيع «أحمد المصرى» بعنوان «اشتراكية الدولة- حكومة مصر تسير على نظام اشتراكى» «يتحدث فيه عن عيوب النظام الفردى ويدعو إلى تدخل الدولة فى إدارة المشاريع الإنتاجية ويقول: «وحكومة مصر تكاد تكون سائرة على نظام اشتراكى فهى تدير السكك الحديدية بأحسن نظام وها هى تدبر البريد والتلغراف..»[١٥].

ثم مقال آخر لنفس الكاتب بعنوان «محمد على باشا- يطبق النظام الاشتراكى فى مصر»[١٦].

لكن ذلك كله لم يعف «روح العصر» من هجوم عنيف شنته عليها جريدة «السياسة» واتهمتها بالشيوعية ويحاول عبد الفتاح القاضى أن ينفى عن مجلته وعن الجماعة التى تصدرها هذه «التهمة» فيكتب مقالا عنيفا بعنوان «أجهل أم تجاهل؟- كشف النقاب عن وجه السياسة» يؤكد فيه «أن روح العصر اشتراكية سياسية لا تختلف فى لهجتها ولا فى ابحاثها عن الديلى هيرالد»[١٧].

لكن ذلك أيضا لم يستطع أن ينفذ المجلة من سيف الإرهاب وأصدرت حكومة صدقى قرارا بإلغاء رخصتها ومنعها نهائيا من الصدور..

وهكذا انهار آخر أمل للعمل «القانونى» عند العرابى وتبخرت نظريته التى انفصل بسببها عن الحزب تحت بطش إرهاب الرجعية المصرية التى لم تكن لتسمح حتى بإيجاد منبر مثل «روح العصر».

وتفرقت الجماعة..

عبد الفتاح القاضى سافر إلى ألمانيا للعلاج.. وحسنى العرابى سافر هو أيضا إلى ألمانيا ولكنه سافر هربا من الضياع والمحاصرة والفقر وإنكار الناس له.

ويروى العرابى فى كلمات حزينة قصة سفره، والساعات الأخيرة التى قضاها متجولا فى شوارع الإسكندرية «أحب بلاد مصر التى فيها قضيت زهرة شبابى، فيها درست فى «العباسية الثانوية»، فيها ضاربت فى «البورصة» وجمعت عشرات الألوف من الجنيهات فيها، بدأت حياتى السياسية وخطبت فى الوف العمال..

طفت فى شوارعها ساعات أسأل الدور والمنازل هل أصابها ما أصابنى، وهل عدت عليها الأيام كما عدت على، فكان جوابها صريحا: لا، الشوارع نظيفة، والعمارات جددت شبابها والشمس مشرقة ضاحكة.. والناس رائحون غادون وعلى وجههم مظاهر المرح والمسرة- أما أنا فأسير وحدى كسير القلب، مهيض الجناح، لا يأبه لى مار ولا مارة، كأن لم يكن لى فيها دولة.. أغريب أنا؟!»[١٨].

هكذا وجد الرجل نفسه فجأة وحيدا، بلا أمل فقرر أن يهاجر.

وكانت هجرة العرابى إشهارا جديدا لإفلاس الفكرة «الإصلاحية» ولقد طالعنا فى فصول سابقة كيف سدت الرجعية المصرية بصلفها وتعنتها ألباب أمام أية دعوة إصلاحية ولقد كان على العرابى أن يدرك منذ البداية أن الذين رفضوا بل وقاوموا الدعوات «الإصلاحية» لعبد الرحمن فهمى وإسماعيل مظهر، كان من الضرورى والحتمى أن يرفضوا دعوة صادرة منه بالذات.

وعلى أية حال لقد هاجر الرجل وأقام فى ألمانيا شهورا طويلة جرد خلالها من جنسيته بمرسوم ملكى. وفى برلين عانى الرجل كما روى فى مذكراته الكثير من التشريد والجوع والحرمان.. ثم عاد إلى مصر.

وهنا تثور تساؤلات عديدة حول عودة الرجل، وحول مدى تورطه فى علاقة مع النازى.. ويؤكد الدكتور محمد انيس أن العرابى «قد انتهى به الأمر إلى أن أصبح من دعاة النازية الألمانية»[١٩].

لكن الشىء المؤكد أن الرجل قد عاد بواسطة حسن نشأت باشا.. والعرابى لا يخفى ذلك فهو يقول «فجددت مسعاى لدى الحكومة المصرية وكان وزير مصر المفوض فى برلين فى ذلك الوقت الرجل الألمعى «حسن باشا نشأت»[*].

ويقول عصام الدين ناصف: إن حسن نشأت أعاد العرابى من ألمانيا خدمة للإنجليز حتى لا يستخدمه الألمان كبوق لهم إذا ما قامت الحرب..

وعلى أية حال- لقد عاد حسن العرابى ليجد أصدقاءه القدامى قد يئسوا من إيجاد أى سبيل لتنفيذ أفكاره الإصلاحية عن العمل العلنى وليجد أنهم قد لجأوا إلى العمل السرى.

وعندما هاجر العرابى والقاضى لم يثبت فى ميدان «العلنية» إلا عصام ناصف الذى أصدر عديدا من الكتاب وأسهم فى تحرير عشرات المجلات وشارك عباس حليم عمله وسط العمال محاولا جهد طاقته أن يكسب هذا العمل طابعا ثوريا.

وقد تصيد عصام ناصف كل نزعة «إصلاحية» يحاول جاهدا أن ينفخ فيها بعض الروح دون جدوى.

وهكذا وبعد أن أصدر العديد من الكتب وبعد أن كتب عشرات بل مئات المقالات فى صحف عديدة ابتداء من «الأهرام» «كوكب الشرق» و«الوادى» و«المقتطف» و«المجلة الجديدة» و«العصور» و«السياسة» إلى مجلات ربما لم يسمع عنها أحد مثل «شبرا»(**) و«الشعاع» و«المصرية» إلخ..

وبعد أن تحالف مع كل دعوة إصلاحية، مع إسماعيل مظهر وعباس حليم والتجمعات المنهاضة للفاشية والجماعات المعادية للحرب.. بعد ذلك كله عاد عصام ناصف والقاضى معا ليقتنعا أنه ما من سبيل إلا العمل السرى.

ويعود العرابى إلى مصر ليجد أن آخر فرسان «الإصلاحية والعلنية» قد تخلى عن تلك الفكرة القديمة التى تزعمها، وأنه قد شرع بالفعل فى تكوين تنظيم سرى..

وشارك حسن العرابى معهم فى هذا التنظيم السرى ثم ما لبث أن انفصل عنهم بعد أن اكتشفوا ميوله النازية فما أن اجتاحت جيوش هتلر أراضى روسيا وبدا للبعض أن روسيا قد هزمت حتى سارع العرابى مطالبا لتنظيم بتأييد ألمانيا ولما رفضت المجموعة انفصل عنها وأخذ فى الاستعداد لملاقاة جيوش روميل، بل ويقال أنه كون حكومة ظل استعدادا لوصول روميل(٢٠).

أما بقية المجموعة فقد التفَّت من جديد مع مجموعة الحزب بالقاهرة وعملوا معا(٢١).

.. وهكذا وبعد، رحلة طويلة، استغرقت سنوات عديدة وجهود ضخمة؛ كتب ومقالات ومجلات وقضايا وسجون، ومناورات ومحاورات مع الإصلاحيين، بعد ذلك كله عاد دعاة الإصلاحية والعمل القانونى من جديد ليعملوا فى نفس التصفوف التى ابتعدوا عنهامنذ ١٩٢٧.

وربما كانت عودتهم هذه كافية بذاتها لإثبات صحة خط الحزب فى تمسكه بضرورة العمل السرى فى مواجهة العنف الرجعى المتشدد وبالتمسك بالنظرية الماركسية كاملة فى مواجهة دعاوى التحلل والتساهل النظرى.

الهوامش

(١) ملف القضية ٣٤٤ كلى ١٩٣١ جنايات الإسكندرية- ص٣٤.
(٢) كوكب الشرق-٨-١- ١٩٢٧.
(٣) الهلال- يوليو ١٩٢٧.
(٤) الهلال- أغسطس ١٩٢٧.
(٥) الرقيب ١٩ - ٢- ١٩٢٨.
(٦) الحياة الجديدة ١٥- ١- ١٩٢٨.
(٧) الحياة الجديدة ١٩- ١- ١٩٢٨.
(٨) المقتطف- مارس ١٩٢٩.
(٩) الحياة الجديدة ٨- ١-١٩٢٨١.
(١٠) مقالات العرابى- المرجع السابق ص١٦.
(١١) روح العصر ١٤- ٢- ١٩٣٠.
(١٢) روح العصر- المرجع السابق.
(١٣) روح العصر ١٦ - ٥- ١٩٣٠.
(١٤) روح العصر- ١٦- ٥- ١٩٣٠.
(١٥) روح العصر - ٢٨- ٢- ١٩٣٠.
(١٦) روح العصر- ١٤- ٣- ١٩٣٠.
(١٧) روح العصر- ٢٨- ٣- ١٩٣٠.
(١٨) محمود حسنى العرابى- ٨٩ شهرا فى المنفى- مطبعة التوكل- القاهرة (١٩٤٨) - ص٧.
(١٩) د. محمد أنيس الحركة الوطنية فى مواجهة الاستعمار الأوروبى سلسلة محاضرات المعهد العالى للدراسات الاشتراكية- مطبوعة بالرونيو.
(*) لا زالت شخصية حسن نشأت لغزا يحير الباحثين فى تاريخ هذه الفترة. فقد كان سفيرا لمصر فى برلين حتى قبل إعلان الحرب العالمية الثانية.
وقد أكد هو أكثر من مرة أنه قام بالوساطة بين ألمانيا وإنجلترا وأنه حمل قبل اشتعال الحرب رسالة من هتلر إلى تشمبرلين. وكان نشأت يؤكد فى أحديثه الخاصة أنه كان صديقا شخصيا لهملر وجورنج وكان يخرج معها كثيرا للصيد ومن سفارة مصر فى برلين إلى سفارة مصر فى لندن انتقل حسن نشأت ليعمل سفيرا فى لندن طوال الحرب، الأمر الذى يوحى برضى الإنجليز عنه.
(**) مجلة شبرا.. أصدرها محمد عبد الحميد عبد الله المحامى لتعبر عن مشاكل حى شبرا. وقد صدر عددها الأول فى ٢٥ مارس ١٩٣٧ وابتداء من العدد الثانى الصادر فى أول أبريل ١٩٣٧ بدأ عصام

الدين ناصف بالكتابة فيها باعتباره من أبناء حى شبرا، وبالتدريج تحولت المجلة إلى منبر للدفاع عن حقوق العمال وتوالت مقالات عصام الدين فيها ومن بينها مقالات- الاشتراكية والإسلام (١٥- ٤- ١٩٣٧) علاقة الاشتراكية بالمذاهب الاجتماعية الأخرى (٢٩- ٤- ١٩٣٧) وابتداء من ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٧ صدرت مجلة شبرا فى حجم جديد معلنة فى صفحتها الاولى أنها لسان العمال على مبادئ الزعيم عباس حليم.

(٢٠) راجع محضر النقاش مع د. عبد الفتاح القاضى، تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر- المرجع السابق- ص٢٧٠.

(٢١) راجع محضر النقاش مع محمد دويدار بالملاحق.